فردريش شيلر

بمناسبة احتفال ألمانيا بذكراه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ عامين احتفلت ألمانيا بذكرى شاعرها الأكبر «جيته» لمناسبة مرور قرن على وفاته ؛ وتحتفل ألمانيا اليوم بذكرى شاعرها الثانى « شيلر » لمناسبة مرور مائة وخمسة وسبعين عاماً على مولده . واذا كانت حياة الخالدين تمثل دائماً فى الأذهان المستنيرة ، فان الاحتفاء بهذه الذكريات يضاعف الاهتمام بسيرهم وآثارهم . ومن ثم فاننا نلتمس هذه المناسبة لنأتى على ترجمة الشاعر العظيم

كانت حياة شيلر صفحة مؤثرة من ذلك الكفاح الذى يضطر الى خوضه أصحاب المثل الأعلى حتى يفوزوا بمثلهم أو يزهقوا دونها ؛ وقد أنفق حداثته وشبابه فى خوض هذه النمار ، حتى اذا اكتملت له أسباب الفوز والطمأنينة ، غادر هذه الحياة شاباً فى إبان ظفره ، وذروة خصبه ، وروعة شاعريته ؛ وكان مولده فى العاشر من نوفمبر سنة ١٧٥٩ فى مدينة مارباخ الواقعة على نهر نكر فى أسرة رقيقة الحال ؛ وكان أبوه يوهان كاسبار جراحاً مساعداً فى الجيش ، استقر فى مارباخ بعد عوده من الحرب وتزوج الزابيث كودفايس ، وهى ابنة صاحب فندق ؛ فرزق منها أولاً بابنة تدعى الزابيث ؛ ثم كان مولد الشاعر ، ثم ابنة أخرى تدعى لويزا . ونشأ الطفل فريدريش أو فرتز (شيلر) ضعيف البنية ، كثير الحياء والوجل ، وتلقى دروسه الأولى فى مدرسة لورش ؛ ثم انتقلت الأسرة الى مدينة لودفجسبورج حيث نقل الأب ، وكانت يومئذ مقام دوق فرتمبورج ؛ وهنالك التحق شيلر « بالمدرسة اللاتينية » ، وبدأ دراسة الأدب واللاتينية ، وقرأ هوراس وأوفيد وفرجيل ؛ وكان لأستاذه القس موزر أثر كبير فى تكوينه . وفى سنة ١٧٧٣ دخل شيلر «أكاديمية كارل» التى أسسها الدوق فى شتوتجارت ، ودرس الحقوق أولاً ثم الطب والتاريخ ، وأظهر تفوقاً فى اليونانية واللاتينية ؛ بيد أنه لم يكن ميالاً الى هذا النوع من الدراسة ، وكان شغوفاً بالأدب ، تهجس به فى أوقات فراغه شاعرية قوية ؛ وكان يكثر من قراءة هومير وفرجيل وكلوبشتوك شاعر ألمانيا فى هذا العصر ، ويتأثر بتفكيره أعا تأثير . وفى ذلك الحين ظهرت قطعتان مسرحيتان قويتان هما : « أوجولينو » لجرستنبرج ، و «جتزفون برلخنجن» لجيته ؛ فتأثر شيلر بقراءتهما واتجه ذهنه الى المسرح ؛ وكتب بعض القصائد والمناظر المسرحية الأولى ، ولكنه مزقها ، ثم بدأ بكتابة روايته المسرحية الأولى : Die Raüber « قطاع الطريق » . وفى سنة ١٧٧٩ أتم دراسته وحصل على أجازته ، وسنحت له بهذه المناسبة أول فرصة لرؤية الشاعر العظيم الذى ملأ صيته ألمانيا يومئذ ، وتعنى «جيته» ؛ فقد وفد مع دوق ڤيمار على شتوتجارت فى فاتحة سنة ١٧٨٠ ليشهدا احتفال الأكاديمية بتوزيع الأجازات . وكان شيلر يومئذ فتى فى عشرينه ، يحمل أجازة الطب والجراحة ، ولكن هوى الشعر يحمله ويملأ جوانحه . وكان يتوق الى التعرف بزعيم الشعر وإمامه ؛ ولم يكن يحلم أنه سيغدو فى أعوام قلائل قرينه وزميله الأوفى . ولم يهتم جيته فى هذا اللقاء الأول بأمر الشاعر الحدث الذى لم يسمع به أحد بعد ، ولكن نجم الشاعر الحدث كان على وشك البزوغ . ذلك أنه ما كاد يعين على أثر تخرجه طبيباً فى حامية شتوتجارت بمرتب يسير ، حتى عكف على إتمام درامته « قطاع الطريق » ، ولكنه لم يلق ناشراً

يقوم بطبعها ، فاقترض نفقات الطبع من بعض أصدقائه وظهرت القصة سنة ١٧٨١ غفلاً من اسم مؤلفها ؛ وهي قطعة مسرحية عنيفة تحمل طابع البداية ، وفيها يصور شيلر كثيراً من عواصف حداثته . ومثلت « قطاع الطريق » عقب صدورها في شتوتجارت ، ثم مثلت في العام التالي في مانهايم ؛ وأحدث ظهورها وتمثيلها ضجة كبيرة . ولكن شيلر لم يؤخذ بهذا النجاح الجزئي . وكانت وظيفته العسكرية تثقل على نفسه ، فاعتزم مغادرة شتوتجارت خفية الى أفق أوسع ، وفي اكتوبر سنة ١٧٨٢ غادرها مع صديق موسيقي يدعى شترايشر الى مدينة مانهايم . وكان يحمل معه مخطوط درامة جديدة هي Fiesco «فيسكو» فعرضها على مدير مسرح يدعى (دالبرج) فأعجب بها ومثلت بنجاح ، وكتب في الأشهر التالية Kabale und Liebe « المؤامرة والحب » ومثلت أيضاً ؛ وكلتاها قرينة « قطاع الطريق » في طابعها العنيف وحماستها الساذجة . بيد أنه رأى المسرح لم يحقق أمله ، ولم تسعفه موارد القطع التمثيلية ، فاضطر أن يبحث للعيش عن وسيلة أخرى ، ولكن في دائرة الأدب أيضاً ، فأصدر مجلة أدبية نقدية اسمها « تاليا » Thalia وظهر العدد الأول منها في مارس سنة ١٧٨٥ وفيه قسم من درامته الجديدة « دون كارلوس » ولكنها لم تستقبل بحماسة . وفي ذلك الحين جاء دوق ڤيمار الى « دار مشتات » لزيارة صهره « اللاند جراف » وكان شيلر قد سمع كثيراً عن نبله ورفيع خلاله وتعضيده للآداب والفنون ، فسار لرؤيته مزوداً ببعض خطابات التوصية ، فاستقبله الدوق بعطف ، وأذن له أن يتلو بين يديه الفصل الأول من « دون كارلوس » ، فاستحسنه وشجع المؤلف بكلمات طيبة ، واستأذنه شيلر في أن يهديه قصته فأذن له ، وأنعم عليه بلقب « مستشار » في خدمته ، وهو لقب لم تكن له سوى قيمة أدبية واجتماعية

وكان شيلر يومئذ فتى في الخامسة والعشرين يضطرم أملاً نحو العلياء والمجد ؛ وكان يقضي حياة عاصفة في الدرس والتفكير والكتابة ؛ وكان قلبه الكبير يخفق أحياناً للحب ؛ ولكن في اعتدال ورزانة . ولم تحمل شيلر نحو النساء تلك النوبات الغرامية العاصفة التي كانت تملأ حياة جيته ؛ ولكنه عرف الحب في تلك الفترة ؛ وتعلق بادىء بدء بفتاة تدعى مرجريت شفان ، وهي ابنة كتبي في مانهايم ؛ وكانت فتاة ساحرة لعوباً خطرة الأهواء ؛ وفكر شيلر في الاقتران بها ولكن أباها رفض في رقة وأدب لأنه لم يأنس في الشاعر بلا ريب مستقبلاً يحمل على الطمأنينة . ثم تعرف شيلر بعد ذلك بفتاة تدعى شارلوت دوستايم ، وشغفت هي به حباً ؛ ولكنها لم تلبث أن اقترنت بضابط يدعى « فون كالب » ؛ وانتقلت معه الى ڤيمار ؛ واستحال حب الشاعر ومدام فون كالب بعد ذلك الى صداقة حميمة استمرت مدى الحياة

وأنفق شيلر في مانهايم زهاء عامين ونصف عام ، وهو يشهد آماله تنهار تباعاً ، وموارد العيش تضيق به . وأخيراً اعتزم أن يغادر مانهايم ، وأن يهجر تلك المهنة التي لم تؤته قوته — بهنة القريض ؛ وأن يلتمس العيش من مهنة أخرى مستبقياً للشعر أوقات فراغه ؛ فغادر مانهايم بعد وداع ممزق لصديقه الحميم شترايشر ؛ وقصد الى قرية جوليس بالقرب من لايبزج حيث كان يقيم صديقه العزيز « كرنر » وكان كرنر ذهناً رفيعاً وقلباً كبيراً ، ألفى فيه الشاعر مثل الصداقة الأعلى ؛ فأقام الى جانبه مدى حين في جوليس ثم في درسدن ، وأتم في تلك الفترة قصته « دون كارلوس » (سنة ١٧٨٦) . وكان ظهورها ظفراً حقيقياً للشاعر ، وكانت في الواقع بداية مجده ، وحداً فاصلاً بين ماضيه الثائر ومستقبله الباهر . وكانت مدينة ڤيمار يومئذ كعبة الشعر ومقام إمامه جيته ، وفيها يجتمع حول الشاعر الأكبر جمهرة من الشعراء والأدباء مثل هردر ، وڤيلاند ، ومابر ، ويظللهم دوق ڤيمار جميعاً برعايته ؛ وكان شيلر يفكر منذ حين في السفر الى ڤيمار ليجرب حظه في ذلك المحيط الأدبي الزاهر ؛ وكانت صديقته الحميمة مدام فون كالب تقيم هنالك منذ حين ؛ وكان ڤيلاند يدعوه فوق ذلك للاشتراك معه في تحرير مجلته « مركور » ؛ فقصد الى ڤيمار في أغسطس سنة ١٧٨٧ ، وقلبه مفعم بالآمال الكبيرة ؛ فاستقبله الدوق بفتور ، ولكن مدام فون كالب استقبلته بعطف مؤثر ؛ ورحب به ڤيلاند الشاعر أيما ترحيب ، واشترك معه في تحرير مجلته ؛ واشترك أيضاً في تحرير مجلة أخرى في « يينا » وترك مجلته الخاصة ؛ واستمر يعاون ڤيلاند مدى عامين ؛ ثم ترك التحرير معه ، ولكنه لبث صديقه الحميم

وفي سنة ١٧٨٨ ، أقام شيلر حيناً في قرية « فولكشتات »

الهادئة ، وهنالك أتم قصته « الهائم » ، وتاريخ « ثورة الأراضي السفلى » الذى بدأه من قبـــل Geschichte des Abfalls der Vereingten Niederlande

فى ذلك الحين كان جيته فى إيطاليا يطوف ربوعها ؛ ثم عاد من رحلته فى سبتمبر . وكان شيلر يرقب مقدمه ليراه ويتعرف به . وسنحت له هذه الفرصة ؛ واجتمع بالشاعر الأكبر وصديقته مدام دى شتاين وهردر فى منزل أسرة لنجفلد التى صاهرها شيلر فيما بعد . وهنالك رأى شيلر ذلك الرجل الذى بلغ ذرى المجد ، والذى رآه من قبل لأول مرة فى حفلة توزيع الأجازات عام تخرجه من المدرسة ؛ وكان شيلر يعلق على هذه المقابلة آمالاً كبيرة ؛ ولكن جيته استقبله بفتور ظاهر ، ولم يكن قد لفت نظره إلى ذلك الحين . وكانت صدمة مؤلمة لشيلر ؛ فكتب إلى صديقه كرنر يصف أثر هذا اللقاء فى نفسه : « يلوح لى من كل الظروف أن الفكرة السامية التى لدى عن جيته لم يزعزعها هذا التعارف الشخصى ؛ بيد أنى أشك أننا نستطيع أن نتقارب بأى وجه . إن قسماً عظيماً مما يزال يشغلني ، ومما زلت أؤمل قد انتهى وقته لديه ، والواقع أن كل شخصية يميل إلى ناحية غير التى أميل إليها ، وبين وجهات نظرنا اختلاف جوهرى . وعلى أى حال فلسنا نستطيع أن نستخلص من هذه المقابلة شيئاً مؤكداً أو ثابتاً . وسوف يعلمنا الزمن ما تبقى » . ولما عاد شيلر إلى ثيمار من مقامه المنعزل لم يحاول كثيراً أن يرى جيته . بيد أن فتور جيته نحوه لم يدم طويلاً فقد رأى فى قصيدته « آلهة اليونان » جمالاً يلفت النظر ؛ ويعترف شيلر من جهة أخرى بأنه كان من ذلك الحين يخشى نقد جيته ، وأنه كان متأثراً بتلك العاطفة حينما وضع قصيدته « الفنانون » وتأنق فى صياغتها

على أن الذى لاريب فيه هو أن لقاء الشاعرين — جيته وشيلر — كان من أعظم حوادث حياتهما إن لم يكن أعظمها جميعاً . وسرعان ماتحول ذلك الفتور الذى أبداه الشاعر الأكبر نحو زميله الفتى إلى حب وإعجاب خالصين ، ولم تمض أعوام قلائل حتى توثقت بينهما أواصر صداقة عميقة ؛ ولم يمنع تنافسهما النبيل فى آفاق الشعر أن تبقى هذه الصداقة إلى الأبد ، مقرونة بالوفاء الخالص والاعجاب المتبادل ، وأن تغدو صفحة خالدة فى تاريخ التعاون الأدبى . كان شيلر رجل المثل العليا ، وفيلسوفاً ذا آراء ونظريات خاصة فى الحياة . ولكن جيته كان رجل الحقيقة ، يعرض ما فى الطبيعة ويصوره كما يراه ؛ وكان شيلر شاعر « الدرامة » وكان جيته شاعر الخيال والفروسية ؛ ولكن كلا منهما كان جندياً عظيماً لبناء الآداب الرفيعة وتحطيم الآداب المبتذلة ؛ وكلاهما قائد عظيم لحركة « العاصفة والدفع » Sturm und Drang التى كانت ظاهرة التفكير والآداب الألمانية فى أواخر القرن الثامن عشر ، والتى كانت ترمى إلى تحطيم القديم وتجديد كل شيء ؛ وكان لهذه الصداقة الحميمة ، وهذا التعاون الأدبى الوثيق بين الشاعرين الكبيرين أثره فى نفس جيته وفى نظمه ، يبدو ظاهراً فى « أغانيه » Balladen ، وفى قصة « هرمان ودروتيا » ، وغيرها مما أخرج فى هذا العهد

صورة تاريخية تمثل الشاعر (الى اليسار) وأمامه جيتى (الى اليمين)

وفى سنة ١٨٩ عين شيلر أستاذاً للتاريخ بجامعة يينا بمعاونة صديقه وأستاذه جيته ، وفى العام التالى اقترن بالآنسة لنجفلد التى تعرف بها وبأسرتها قبل ذلك بأشهر قلائل ؛ وبذلك استقرت حياته ، وعاش فى نوع من الصفاء والرغد ؛ وانكب فى هذه الفترة على دراسة التاريخ ؛ وألف كتابه عن « حرب الثلاثين » Geschichte des Dreissigjarige Kriegs ؛ وأصدر مجلة أدبية فلسفية بعنوان « الساعات » Die Horen ، كانت نموذجاً بديعاً

للتفكير الرفيع ، وفيها كان يكتب أئمة العصر : جيته ، وهردر وكانت ، ونخته ، ومار ، وانجل ، وجا كوبى وغيرهم ؛ وكان لها أثر عظيم فى سير الثقافة الألمانية والتفكير الألمانى فى ذلك العصر . وكان شيلر من أنصار الثورة الفرنسية التى كانت تضطرم فى ذلك الحين ، وظهر ذلك العطف فى كثير من كتاباته وقصائده حتى أن «المؤتمر الوطنى» الفرنسى منحه لقب «مواطن فرنسى». وفى تلك الفترة أيضاً أخرج شيلر درامته القوية « فالنشتاين » Wallenstein (١٧٩٩) ، واستمر فى تدريس التاريخ فى يينا حتى سنة ١٨٠٠ ، ثم استقال من منصبه ، وعاد فاستقر فى ڤيمار إلى جانب جيته ؛ وهنالك أخرج عدة قطع جديدة : ماريا ستوارت ؛ وعذراء أورليان Jugfrau von Orleans ، وعروس مسينى Braut von Messina ؛ فكان لصدورها جميعاً دوى عظيم ؛ وكانت جميعاً من أبدع ما كتب

واستقر شيلر فى ڤيمار نهائياً ، ولم يغادرها إلا ليزور برلين زيارة قصيرة ليشرف هنالك على إخراج بعض قطعه . وكانت ڤيمار يومئذ كعبة الأدب الرفيع ، يجتمع فيها حول إمامى الشعر ، جيته وشيلر ، صفوة من أقطاب الشعر والأدب ؛ وكانت صداقة جيته وشيلر أبدع وأروع مظاهر هذا المجتمع الأدبى الباهر . وفى سنة ١٨٠٤ كتب شيلر درامته « ولهلم تل » Wilhelm Tell ، فكانت أعظم قصصه وأروعها . والمعروف أنه استقى موضوعها من صديقه جيته ، وكان جيته قد زار سويسرا قبل ذلك بقليل ودرس هنالك تاريخ تل بطل سويسرا القومى ، وزار الأمكنة التى تقول الأسطورة إنها كانت ميادين بطولته ، لينتفع بذلك الدرس فى قصة يعتزم كتابتها عن تل . ولكنه لما عاد الى ڤيمار نبذ الفكرة ، وأعطى مواد دراسته الى شيلر لينتفع بها هو ؛ فاستقى منها موضوع قصته «ولهلم تل» ، فجاءت أبدع ما كتب ، وأثارت من جيته أيما إعجاب . بيد أنها كانت أيضاً آخر ما أخرج شيلر . ذلك أنه مرض فى أوائل سنة ١٨٠٥ ، ومرض أيضاً جيته فى الوقت نفسه ؛ واشتدت عليهما وطأة المرض ، حتى صرح جيته بأنه يشعر بدنو أجله ، وأن أحدهما لابد ذاهب . ولكن الذى توفى هو شيلر . توفى فى الثامن من شهر مايو ، فى الخامسة والأربعين فقط ، فوقع موته فى ڤيمار وقع الصاعقة ، وارتدت ثوب الحداد مدى حين . وتلقى جيته نبأ الفاجعة وهو فى فراش مرضه ، فبعثت الى نفسه أعمق حزن ، وسمع ليلا وهو يبكى أحر بكاء . وكتب يومئذ الى أحد أصدقائه مشيراً الى فقد شيلر : « لقد فقدت نصف حياتى » ، وغلب عليه الحزن حيناً فأضرب عن العمل والكتابة ؛ والى ذلك يشير بقوله : « إن مذكراتى فى هذه الفترة صحف بيضاء . والصحف البيضاء عنوان الفراغ فى حياتى . ولم يك ثمة شىء يستهوينى فى تلك الأيام »

وهكذا مات شيلر فى إبان مجده وذروة شاعريته ، ولم ينعم بالحياة الناعمة المستقرة إلا ردحاً قليلاً ؛ فكانت حياته كلها صفحة كفاح مستمر ؛ بيد أنه خرج من هذا الكفاح ظافراً متمتعاً بعيسم المجد والخلود . ولم يكن شيلر شاعراً مبدعاً فقط ، ولكنه كان فيلسوفاً عظيماً ، وفناناً كبيراً ، ومؤرخاً بارعا ؛ وكان يؤمن بالثقافة كوسيلة لرفع الانسانية الى ذرى القوة والعظمة ، ويرى أن الفن ليس ترفا لذوى الفراغ والجدة ، وليس لهواً يستمرئه الخامل ، ولكنه قوة عظيمة ذات أغراض جدية وإن كانت وسائله شائقة سارة ، وإنه قرين الدين يعاون على تنظيم هذا العالم. وكان ذهنا ثائراً جريئاً جلداً يمجد بالحرية ، ويمقت كل صنوف الاستعباد ؛ وكان قلباً رقيقاً يفيض حساً وانسانية ؛ خبيراً بأسرار الطبائع والنزعات البشرية ؛ وكان مؤرخاً بارعاً ينفذ إلى أسرار التاريخ ، ويستوعبها بقوة ودقة ، وهذه النزعة التاريخية الناقدة تبدو فى كثير من قطعه المسرحية . ولو مد فى حياة شيلر ، كما مد فى حياة صديقه جيته ، لظفرت منه الآداب الألمانية بأضعاف ما ظفرت ؛ وكان على الأرجح ينازع جيته إمارته فى الشعر الألمانى ، بيد أنه مع ذلك يتبوأ إلى جانبه المقام الأول فى عالم المجد والخلود ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

ترجمها الاستاذ احمد حسن الزيات

ثمنها ١٥ قرشاً